مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد التاسع عشر - المجلد الرابع - اللغة العربية - نيسان / 2022 م
doi.org/10.52866/esj.2022.04.19.08

الفوبيا في رواية (فرانكشتاين في بغداد) لأحمد سعداوي

م. د. غانم أحمد حسين
كلية الإمام الأعظم الجامعة

مستخلص:

يتناول البحث ثيمة الخوف والرعب والفوضى التي سيطرت على المجتمع العراقي بعد أحداث عام 2003. وتغيير نظام الحكم في العراق ودخول قوات التحالف الأميركي. وما رافق هذه الأحداث من تصعيد عنيف على كافة المستويات الاقتصادية والسياسية والدينية . فكانت نتيجة هذه التغييرات قاسية على الشعب العراقي . الذي ظل يعاني من مضاعفاتها سنوات طويلة. لذلك نجد أن الكاتب في رواية (فرانكشتاين في بغداد) سلط الضوء على الاحداث التي هزت المجتمع العراقي وأرعبه .ليصور للعالم حجم الألم والمعاناة التي يتجرعها هذا الشعب.

فقد ذكر الكاتب بعض الشخوص والأمكنة والأحداث التي كانت مسرح لعمليات الصراع وعندما نقول صراع فهو صراع بكل ما تحمله الكلمة من معنى مرعب ومفزع. فقد كان صراع الهوية والانتماء وهذا أشد أنواع الألم عندما يحاسب الأنسان على مشاعره ومكنوناته الداخلية . يجد نفسه في هذه الحالة مرعوب ومجهد نفسياً . لذلك كان على الإنسان العراقي أن يعيش وسط كل هذه التناقضات التي تجري حوله.

الكلمات المفتاحية: العراق – الاحتلال – الخوف – العنف – الإنسان .

Bhopia in the novel Frankentein in Baghdad

Dr.Ghanem Ahmed Hussein AL-shamari
AL-Imam AL-Adham University College

Abstract :

The research deals with the theme of fear ,terror and chaos that dominated Iraqi society after 2003 ,and the regime change in Iraq and the entry of the USA coalition forces .and the violent escalation that accompanied these events at all economic .political and religious levels .the result of these changes was harsh for the Iraqi people .who had been suffering from their .complications for many years . there for , we find that the writer in the novel Frankenstein in Baghdad shed light on some of the events that shook and terrified Iraqi society . to portray to the world the extent of the pain and suffering that this people inflicted on.

The author mentioned some of the characters ,places and events that were the scene of conflict. And when we say conflict it is a struggle in all its horrific and frightening meaning. It was a struggle on all levels and political ,religious ,sectarian and other levels .therefor ,the Iraqi person hat to adapt and live amid all these contradictions that are taking place around him.

Keywords: Iraq- occapation-fear-violence-human beings.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين. سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته المنتجبين . وبعد..

إن الكاتب والأديب هو لسان حال المجتمع الذي يعيش فيه. ينقل همومهم للعالم ويدافع عن حقوقهم. لذلك يتوجب عليه أن يقف على أهم المستجدات التي تشهدها الساحة ومواكبتها ومحاولة إيجاد الحلول لمعالجتها.

لذا نجد أن الشاعر والكاتب والأديب بصورة عامة وجد في الأحداث المتسارعة والمتغيرات التي شهدها المجتمع العراقي بعد عام 2003 مادة ثرة وخصبة في تطوير نتاجة الأدبي والأدلاء بمكنوناته النفسية ونقلها للعالم أجمع. وكان الكاتب الروائي له النصيب الأوفر من هذا النتاج. فالمتتبع لجهود الروائيين العراقيين في هذه الحقبة الزمنية يجد أنهم لم يتركوا حتى دقائق الأمور الا وقفوا عندها ودققوا فيها محاولين نقلها الى القارئ بإسلوب فني وصياغة حاذقة. لكي يرى العالم حجم المعاناة والألم والهلع والخوف الذي شهده الإنسان العراقي في تلك الكدة الزمنية. وفي كل مرافق الحياة ومؤسساتها وبنياتها التحتية. فكانت هذه الروايات واقعية بحته . استمد الكاتب أحداثها من الحياة اليومية للشارع العراقي.

ومن هذه الأعمال التي جسدت المعاناة العراقية ووقفت عندها رواية (فرانكشتاين في بغداد) للكاتب والروائي العراقي (أحمد سعداوي) إذ سنقف فيها على ثيمة الخوف والفوبيا التي أصابت المجتمع. وما هي الأسباب التي دعت الى هذه القضية.

قسمت البحث إلى أربعة مطالب تسبقها مقدمة وتوطئة توضيحية عن الفوبيا وأصولها. وينتهي بخاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصلت اليها. ثم قائمتين الأولى بالهوامش. والثانية احتوت أهم المصادر التي استعملتها في البحث.

كان المطلب الأول بعنوان (فوبيا الشخصية) وقفت فيه على كيفية تسلط الشخصية وتحول خصائصها من الإنسانية الى الوحشية. ووقفت في المطلب الثاني على (فوبيا المكان) وكيفية تحول دلالة هذا المكان من الأليف الى المعادي في ظل الظروف التي تجري فيه. أما المطلب الثالث فقد كان بعنوان (فوبيا الهوية) وكمية الألم والخوف التي تعرض لها الفرد من جراء هويته. وحمل المطلب الرابع عنوان (فوبيا المستقبل المجهول) في ظل هذه الأحداث المتشابكة.

الفوبيا تعريفها وماهيتها

توطئة

الفوبيا ..لغةً. هي كلمة يونانية الأصل وتعني (الخوف من) وقد دخلت اللغات الأوربية ومنها الإنكليزية، ككلمة موصولة مع ما يراد وصف حالة الخوف المرضي منه كالخوف من الأرقام. ثم أخذت هذه الكلمة استغلالها في اللغة الإنكليزية وصارت تستخدم كبديل ذو معنى أعمق من مرادفها الشهير ((1)). (free)[1]

أما في الاصطلاح. فالفوبيا أو الخوف الشديد. هي مراحل متطورة من الخوف الشديد غير المعقول من شيء ما. ولا شك بأن هذا الخوف يعود الى أسباب أو موقف معين مما يؤدي الى تجنب هذا الشيء أو الموقف نهائياً. وقد تكون نشأة الفوبيا نتيجة لتجربة سلبية أثرت سلباً على نفسية الشخص المتعرض لها[2]. أما الخوف

(1) ينظر ، الفوبيا وأنواعها ، علي الهاشمي الدوري : 1
(2) ينظر المصدر نفسه : 1 .

الذي هو النواة الداخلية للفوبيا. فيعرف لغةً .. بأنه خافه يخافه خوفاً وخيفةً ومخافةً [1].

وأصل الكلمة خوفة وجمعها خيف[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿**الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾ سورة قريش الآية4.

أما في الاصطلاح .. فيعرف الخوف بأنه شعور قوي بالرهبة تجاه أمر ما نواجه، وقد يكون هذا الشعور واقعياً وحقيقياً .وقد يكون عبارة عن تهيَؤات أو خيال. وقد عرفه الراغب الأصفهاني بأنه توقع مكروه عن إمارة أو علامة معلومة أو مظنونة، كما أن الرجاء والطمع توقع محمود ومحبوب عن إمارة معلومة أو مظنونة، ويضاد الخوف الأمن ويستعمل ذلك في الامور الدنيوية والإخروية[3]. لذلك فإن الخوف يبقى شعوراً طبيعياً حيث يبقى في معدلاته الطبيعية. من حيث عدد مرات تكراره ومدى شدته. فكلما زادت شدة الخوف أو زادت نوبات تكراره. فإنه يتحول الى حالة مرضية. يدخل عندئذ في مجالات علم النفس المتشعبة والكثيرة التي تتكفل بإيجاد الحلول له.

المطلب الأول
فوبيا الشخصية

تعد الشخصية محور العمل الأدبي. وهي النواة المركزية التي تدور حولها جميع أحداث العمل. إذ أن الأحداث ليس لها وجود دون وجود الشخصية تتفاعل مع الحدث وتحركه وتطوره[4]. لذلك يعرف (توماشفسكي) الشخصية :بأنها نوع من الدعائم الحية لمختلف الحوافز أويجعل وظيفتها خلق نسق الحوافز وربطها وهي بذلك تقوم بدور خيط مرشد بين ركام الحوافز يسهل عملية انتباه القارئ [5] .

فالشخصية اذاً هي أداة الكاتب يقوم بتحريكها عندما يريد إنشاء حدثاً معيناً بغض النظر عن ماهية هذا الحدث كوميدياً كان أم تراجيدياِ.

ففي رواية (فرانكشتاين في بغداد) للكاتب أحمد سعداوي. نجد أن الكاتب رسم شخصياته رسماً قلقاً. إذ أن هذه الشخصيات تعيش حالة من الهلع والقلق وعدم الاستقرار والخوف الدائم من المستقبل المجهول بسبب تسارع الأحداث وتقلبها نحو الأسوأ. فهي تعيش في صراع مستمر وفوبيا قاتلة. سواء كان في محل عملها أو محل سكنها وإقامتها أو أي مكان آخر ممكن أن تتواجد فيه. فهي تفتقد الى الأمان والاستقرار نظراً للواقع المؤلم الذي تعيش فيه وفرض قسراً عليها.

فالكاتب يريد أن يوصل للقارئ فكرة معينة عن حياة الانسان العراقي في تلك الحقبة الزمنية. فأخذ نموذجاً معيناً ومكاناً معيناً من بغداد وصور فيه حجم المعاناة والخوف اللحظي الدائم من تفاقم الأحداث والصراع من بين العديد من الاطراف المعروف منها قليل والمجهول أكثر بكثير. والضحية الأولى والأخيرة هي الأنسان العراقي الاعزل الذي صار وقود للنار المستعرة التي وقعت بين الأطراف المتنازعة. والتي يجهل مغزاها ومبتغاها الحقيقي على وجه التحديد.

ومن النماذج العملية على هذا التنظير في روايتنا ما نجده في قول الكاتب ((وتحدث فرج الدلال مع أم سليم أيضاً والآخرين لم يفقد الأمل أبداً. بينما ظل هادي العتاك يزعجها في الطريق بتكرار طلبه مرة بعد أخرى، حتى انشغل عنها لاحقاً، مكتفياً بالنظرات العدائية المتكلفة وكأنه يحاول إحراقها بعينيه حين تمر بجواره في الزقاق. لم تكتف ايليشوا العجوز برفض هذه

(1) ينظر ، لسان العرب ، ابن منظور ، مجلد 9
(2) ينظر ، القاموس المحيط، الفيروزآبادي: 1045
(3) ينظر، معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني 161
(4) ينظر ، عودة الى خطاب الحكاية ، جيرار جنيت: 179 .
(5) ينظر –الألسنية والنقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ،موريس أبو ناضر: 20 .

العروض، وإنما خصت الرجلين بالكراهية. رمت بهما في الجحيم المؤبد. رأت في وجهيهما شخصين جشعين بروحين ملوثتين كبق جير على سجادة رخيصة يصعب إزالتها.

كان يمكن إضافة ((أبو زيدون الحلاق)) إلى قائمة المكروهين الملعونين، الرجل الحزبي الذي قاد ابنها من ياقته الى المجهول وفقدته بسبب ذلك، ولكن أبو زيدون اختفى عن أنظارها منذ سنوات بعيدة، ولم تعد تصادفه أو تراه، ولم يعد يتحدث الآخرون في سيرته أمامها، منذ أن ترك الحزب وانشغل بأمراضه الكثيرة والمتعددة، وتجاهل كل ما يجري من شؤون واحداث في الحي بأكمله))[1] .

ركز الكاتب في هذا النص على شخصية (إيليشوا) العجوز المسيحية التي تسكن وحدها في بيتها الكبير في حي البتاوين في جانب الرصافة من مدينة بغداد. وبعد أن هاجرت ابنتيها الى استراليا كانت هذه العجوز تعيش في قلق وهلع دائمين. هذه الفوبيا والخوف لهما مصادر متعددة منها خوفها على بنتيها ورغبتها الشديدة في الاطمئنان عليهما. وولدها الذي فقد في الحرب العراقية الإيرانية. والتي ترقص فكرة فقده وتنتظر عودته في أي لحظة. ووضع البلد المؤلم الذي من الممكن أن تذهب ضحية أحد الانفجارات في كل يوم فضلا عن الحرج الذي تتعرض له من بعض أهل المحلة الجشعين وأصحاب النفوس الضعيفة. كل هذه الأحداث سببت لهذه العجوز المسيحية نوعا من الخوف والفوبيا الدائمة من جراء ما يحدث أمامها من أحداث. التي ممكن أن تتفاقم في أي لحظة وتفقد الدولة السيطرة على الوضع. مما جعل هذه المرأة لا تهتم لكثير من الأحداث .وكأن تفكيرها و إدراكها توقف عند محطة معينة. على الرغم من حسن تعامل جيرانها معها. الذين يكنون لها نوعا من القدسية المباركة لشخصيتها.

ونجد نوعا آخر على فوبيا الشخصية في هذه الرواية في قول الروائي (جاءت سيارتا شرطة حوضيتان واغلقتا فتحتي الزقاق رقم واحد، نزل خمسة رجال شرطة مع أسلحتهم وكان معهم أمريكي من الميلتري بوليس. دفعوا الناس الفضوليين الى ما وراء بدن السيارتين. وكان الزقاق خاليا منذ الصباح، واكتفى الكثير من الأهالي بإطلالة صامتة وخائفة من نوافذ الشناشيل القديمة المطلة على الزقاق، والتي توحي للناظر بأنها ستسقط بمن فيها في أي لحظة. كان السكون تام بينما يقوم أحد رجال الشرطة بالتقاط صور كثيرة بكاميرا في يده.

بعدها بدقائق جاء فرج الدلال لاهثاً. تهتز لحيته الكثة مع كل خوة يخطوها وهو يتأبط حقيبة جلدية صغيرة يستعملها في حفظ الوثائق والاوراق الرسمية أثناء زيارته للدوائر الحكومية.

بادر الأميركي من فوره بسؤال فرج الدلال عن البيت ومن يسكنه، وهل له معرفة بالحادث .وكان المترجم الذي يرتدي ملابس الشرطة يلاحق كلمات الاميركي بالترجمة وينظر باتهام الى فرج الذي بدا مذهولا مما يرى، فهو على الرغم من سطوته في المنطقة كان يخاف من الأميركان، يعرف أنهم يتصرفون باستقلالية كبيرة، ولا يستطيع أحد محاسبتهم على ما يفعلون أوبإمكانهم أن يقذفوا بأي إنسان وراء الغيوم بمجرد تغيير المزاج. فتح شفتيه اليابستين وأوضح إنه يملك هذا البيت))[2].

منذ أن دخلت قوات التحالف الأميركي الى العراق عام 2003. وما رافق هذه الأحداث من تصرفات عدوانية وتعامل قاسي مع المواطن العراقي بكل أطيافه و مذاهبه. كل هذه الوقائع شكلت هاجس خوف لدى الفرد العراقي من هذه القوات التي لا تفهم

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد ، أحمد سعداوي،18 .

(2) رواية فرانكشتاين في بغداد، أحمد سعداوي : 79 .

لغة الحوار. تتعامل مع الانسان بكل بطش ووحشية بمجرد شعورها بالخطر. فهي تهلك كل ما حولها ولا تهتم أو ترف .فإن قانونها يخولها قتل العشرات بل المئات من المواطنين العزل. كل هذه الفوضى المتشابكة والمعقدة أدت الى حدوث فوبيا لدى المواطن من هذه الجنود المزاجية. فنلحظ أنه مجرد رؤيتهم يتأتى لدى الانسان شعور بالخوف والهلع بأنه شيء ما سيحدث. فيتسارعون بالفرار والهرب للتخلص من هذا المكان الذي يوجد فيه هؤلاء الجنود العدوانيين خوفا منهم. أو ربما هناك إحدى الجماعات المسلحة تستهدفهم في مكان يجتمع فيه الناس. وبالتالي يحترق كل من كان في هذا المكان .

لهذا السبب نجد أن الكاتب أراد أن يصور للعالم كله حجم المعاناة التي يعيشها الانسان العراقي في تلك المدة الزمنية. وحجم الصراع والألم الذي تعددت مصادره ومنابعه، فهو لا يشعر بالارتياح حتى وهو في قعر بيته خوفا من مداهمة ما يفتعلها الجيش الاميركي بحجة مطاردته لشخص يعتقد بانه مشتبه به. وما يخلفه هذا العمل الهمجي من خوف لدى الاطفال والنساء وهو يتعدى بالإهانة والضرب على الرجال فضلا عن تدميرهم لكل محتويات المنازل التي يداهمونها. لذلك شهد الفرد العراقي في ظل تلك الازمة كوارث وويلات ربما لم يشهدها التأريخ الحديث عبر مئات السنين.

ومن الامثلة الاخرى على فوبيا الشخصية في رواية فرانكشتاين في بغداد قول الروائي ((أخرج ليلاً، بعد الغروب بساعة أو ساعتين. أمر تحت تقاطعات نيرات لا تهدأ تنطلق من جهات مختلفة. أكون السائر الوحيد في شوارع طويلة فارغة حتى من القطط أو الكلاب السائبة. لا شيء سوى وقع خطواتي في الفواصل القلية من الصمت بين رشيش الرصاص الذي يشتد ويتزايد مع اقتراب منتصف الليل. أكون مجهزاً بكل ما احتاجه. بضع هويات ووثائق جيدة الصنع وغير قابلة للكشف زودني بها ((العدو))، مسار دقيق لحركتي بين الأحياء السكنية والشوارع والأزقة زودني بها ((الساحر)) ويمنحني فرصة للإفلات من مصادفة إنسان لا أحتاج الى رؤيته ولا يحتاج هو الى ذلك أيضاً.

تجهيزات كاملة من الملابس تناسب المكان الذي أتجه إليه يزودني بها المجانين الثلاثة دائماً. وماكياج يخفي الندوب والضروب وعقد الخياطة في وجهي. يقوم ((السفسطائي))بهذا العمل غالياً، ويعطيني المرآة كي أرى نتيجة عمله قبل خروجي الذي لا يرافقني فيه أحد))[1]. رسم الكاتب في هذا المقطع من روايته شخصية خيالية ليس لها وجود على أرض الواقع. ليبين للقارئ حجم الفوضى العرمة التي حلت بالشارع العراقي. إذ نجد أن مثل هذه الشخصية تنتمي الى العديد من الأطراف بدءاً من أعلى مستويات الدولة وانتهاءً بالمجرمين المطلوبين للعدالة. في هذه الحالة من الصعب جداً احتواء هذه الشخصية والسيطرة عليها. لأنها مدعومة ومنتمية للعديد من الأطراف التي تستغل الوضع الصعب للدولة وغياب القانون في تحقيق مكاسب شخصية تكسر بهل ظهر الدولة قبل المواطن تنفيذاً لرغبة أجندات خارجية. الهدف من ذلك كله تمزيق النسيج الوطني للشعب. فالكاتب لم يذكر هذه الشخصية بعينها على الرغم من أنها لا تخفى على أحد. ولكن رسمها من نسج خياله ليسلط الضوء على هذه الكارثة الحقيقية. لهذا نجد أن المواطن بدأت تتشكل عنده فوبيا من هذه الشخصيات. وخصوصاً عندما يشاهد أمام عينيه أنها تحقق مرادها وتنفذ مبتغاها دون رادع. إذ لا يستطيع أي شخص في لدوله مهما علا شأنه أن يسألها أو يصدها عن أفعالها.

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد ، أحمد سعداوي: 162-161 .

ومن النماذج الأخرى على فوبيا الشخصية في رواية فرانكشتاين في بغداد ما نجده في قول الروائي: ((في الحادي والعشرين من شباط عام 2006 أعلنت القيادات الأمنية العليا في بغداد عن إلقاء القبض أخيراً على المجرم الخطير، الذي تسميه بعض التقارير ((بالمجرم أكس)) ويسميه الأهالي ((الشسمه)) ولهُ أسماء أخرى عديدة.

هذا المجرم كان مسؤولاً عن عمليات قتل مروعة جرت على مدى العام الماضي داخل بغداد، أثارت الرعب والهلع في نفوس الناس، الأمر الذي هدد العملية السياسية كلها بالانهيار. عرضوا صورة كبيرة له من خلال عارضة الشرائح على شاشة كبيرة . ونطقوا اسمهُ إنه المجرم هادي حساني عبد روس، من سكنة حي البتاوين في بغداد، والملقب بـ ((هادي العتاك)).

كان المتهم قد اعترف بكل الجرائم المنسوبة إليه، ومنها قيادته لعصابة قتل وتقطيع أشلاء الضحايا وتوزيعها على الأزقة في أحياء بغداد من أجل إشاعة الرعب والخوف. وتخطيطه لعملية تفجير فندق السدير نوفوتيل بسيارة نفايات مفخخة قادها انتحاري من أتباعه، وقتله لعدد من الضباط الأجانب والمتعاقدين الأمنيين، والتفجير المروع في حي البتاوين الذي أسقط ضحايا وهدم عدد من البيوت وكلف العراق خسائر لا تُعد بثمن في تراثه العمراني. يضاف الى ذلك تورط المجرم في أحاث العنف الطائفي، وقيامه بتنفيذ عمليات قتل بالأجرة لصالح عصابات وأطراف ينتمي أفرادها الى مختلف أفراد الشعب العراقي))[1].

شخصية من طراز خاص. انتزعت منها كل مقومات الفطرة الإنسانية السليمة. وأصبحت تتصف بصفات حيوانية متوحشة. لا تشبع ولا تهدأ إلا بمشاهدة الدم والقتل، لم تكتف بالقتل فقط وإنما زادت على ذلك أمراً في غاية البشاعة والوحشية وهو التمثيل بالجثث وتقطيعهم. إذ أن هذه الأفعال لا يقوم بها إلا من فقد كل مقومات الإنسانية من عاطفة ورحمة وإحساس. تطبعت بطبائع التخريب والدمار وإثارة الهلع والخوف في نفوس الناس. والتي تخلف هذه المشاهد حالة من الفوبيا الهستيرية. فضلاً عن ذلك خطر هذا المجرم على الدولة وتدميره لبناها التحتية، وما تسببه الانفجارات التي يفعلها من دمار في الممتلكات العامة والخاصة. لذلك كانت حادثة الإمساك به وإلقاء القبض عليه بعث الروح من جديد في الناس والفرح العارم الذي حصل لهم أثر سماع الخبر من وكالات الأنباء وهذا ما نجده في قول الكاتب ((امتلأت سماء بغداد بالإطلاقات النارية على إثر سماع الخبر، وكانت حالة من الفرح العارم والهستيري تسيطر على الجميع، وبالذات في حي البتاوين. لم يصدق أحد أن المجرم المخيف هذا يسكن بينهم، ولكن ما تقوله الحكومة صحيح. وهم سعداء الآن لأنهم تخلصوا من عدو كان يسكن بينهم، ومن مجرم أرعب الناس على مدى عام خرجت أم سليمة البيضة لترقص في الزقاق محركة أساورها الذهبية التي تطوق ذراعيها البيضاوين، وظل زوجها ينظر من فتحة الباب على استحياء وهو يدس يديه في جيبي بجامته البازة. خرجت العجوز الأرمنية فيرونيكا لترمي الملبس والحلوى على رؤوس الأطفال في الزقاق، ورغم الغيوم التي كانت تتكاثف في سماء المدينة وتنذر بمطر وشيك إلا أن أناساً كثيراً ظلوا يرقصون في الشوارع والأزقة وعلى أسطح البنايات لأكثر من ساعة. لقد انتهت جميع مشاكلهم، أو هكذا يوهمون أنفسهم، ولا بأس. إنهم يتذوقون نوعاً من الفرح لم يمر على أرواهم من قبل))[2].

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد، أحمد سعداوي : 346 – 347.

(2) رواية فرانكشتاين في بغداد ،أحمد سعداوي : 349–348.

نلحظ في النص أعلاه نوعين من الحدث يتمثل بسبب ونتيجة. فهذه الفرحة والسرور والبهجة التي دبت في نفوس الناس ما هي الا نتيجة لسبب يبين مدى الفوبيا والخوف الدائم والهلع الذي سببه لهم هذا المجرم الخطير. والأمر الذي أصاب الناس بالصدمة هو معرفتهم بهذا الشخص الذي كان يعيش بينهم ولكن بحلة ولباس متخفي. فنرى في هذا النص كيف تحول الالم والحزن الذي كان يغشى على قلوب الناس بمجرد زوال الغيمة المعتمة التي كان يسببها لهم هذا المجرم الخطير. لتبدأ حياة جديدة بعيدة عن كل ذلك الواقع المؤلم. ولكن في الحقيقة أن الواقع يتكلم بكلام آخر. فأمثال هذه الشخصية الكثير وسط هذه الفوضى وحالة الهرج التي تعيشها الدولة من غياب السلطة والقانون وانعدام الأمن في جميع مفاصل الحياة. فالكاتب في هذا النص يريد أن ينقل صورة للواقع الفوضوي الذي كان يعم الحياة في تلك الحقبة الزمنية، وما فعلة أصحاب الشذوذ الخلقي من قتل وتهجير لآلاف العائلات مقابل الأموال التي أعمت القلوب والأبصار.

المطلب الثاني
فوبيا المكان

يعد المكان بيئة العمل الأدبي. والوعاء الذي يحتوي جميع أحداثه، فهو يربط عناصر العمل الأدبي فيما بينها ويجعلها متماسكة ومترابطة. الأمر الذي جعل البعض يرى أن ((العمل الأدبي الذي يفقد المكانية فإنه يفقد أصالته)) [1].

يرتبط المكان ارتباطاً وثيقاً مع بقية عناصر العملية السردية كما أسلفنا. فهو جزء لا يتجزأ من الشخصيات. أي أن المكان من حركة الشخصية فيه تحرك أحداثه وتتفاعل فيما بينها لا قيمة لهُ. وبهذا فإن ((بنية مكان النص نموذجا لبنية مكان العمل الحقيقي وأن قواعد التركيب الداخلية لعناصر البنية النصية والسياق النصي منح المكان لغة النمذجة))[2].

ويشكل المكان مساحة واسعة في بنية الزمان. فهما عنصران متلازمان أينما وجد أحدهما فلا بد من وجود الثاني ليكمل عمله، إذ يشكلان معاً ((مفعول العمل السردي الذي يتعدى إليهما فعله ليرصد تحولاتهما أوهما الفاعل الذي يمارس فعله في القصة)) [3].

واستناداً الى ما تقدم فإن المكان الطبيعي في أي عمل روائي هو الفسحة التي تدور فيها جميع الأحداث الدرامية في هذا العمل، وهذا المكان إما أن يكون حقيقياً أو مكانياً روائياً من صنع خيال الأديب المبدع، ويوجد تشابه شكلي بين الاثنين [4].

لذلك فإن المكان الأدبي لا يحمل صفة معينة بذاته، بل أن ما يجري في هذا المكان من أحداث هي التي تحدد هويته من الألفة والعداوة والانفتاح والانغلاق وغيرها. وما نجده في رواية (فرانكشتاين في بغداد) أن المكان هنا يمتلك صفة واحدة هي صفة العداوة والخوف التي تلازم المكان في كل أحواله سواء كان في العمل أو السوق أو البيت نظراً للظروف التي تجري فيه وتكسبه هذه الصفة التي تجعل الانسان الذي يعيش فيه ينفر منه ويتحاشاه مما شكل عنده نوعا من الفوبيا والخوف الدائم من الأحداث التي يمكن أن تتفاقم في أي لحظة.

ومن النماذج التطبيقية على عداوة المكان في رواية (فرانكشتاين في بغداد) قول الكاتب ((تأخذ ا يليشوا أم دانيال هاتف نوكيا الصغير بيدها المعروقة اليابسة، تضعه على إذنها وتسمع الأصوات الأليفة لبناتها فيذهب الظلام فجأة أوتهدأ روحها أوبعد منتصف النهار تعود الى ساحة الطيران لترى أن كل شيء هادئ تماماً

(1) جماليات المكان ، غاستون باشلار: 5 .

(2) مشكلة المكان الفني ، يوري لوتمان: 89 .
(3) عصر الرواية ، جابر عصفور: 116 .
(4) ينظر ، إدام الفن ، د .فليح الركابي: 177 .

كما تركته صباحاً، الأرصفة نظيفة والسيارات التي احترقت تم سحبها. الميتون الى الطب العدلي والجرحى الى مستشفى الكندي. بعض الزجاج المهشم هنا وهناك. عمود متسخ بالدخان، حفرة صغيرة أو كبيرة في إسفلت الشارع. وأشياء أخرى لا تتمكن بسبب بصرها الغائم من رؤيتها أو الانتباه لها))[1].

كل شيء في هذا المقطع الدرامي يوحي بالتشاؤم والبؤس والخوف (سيارات محترقة، أموات، جرحى، حفر في الشوارع) كل هذه الصور نتيجة عن حجم الكارثة المأساوية التي خلفها انفجار عظيم هز المدينة بأكملها وأدخل الرعب والهلع في قلب المواطن البائس الذي أصبح يستسلم لهذا الروتين اليومي أو اللحظي على وجه الدقة، فساحة الطيران من أكثر مناطق العصمة بغداد أخذت نصيبها من هذا الحدث البائس والمؤلم نظراً لأنها مكان مركزي يجتمع فيه الناس والباعة المتجولون والمارة. فباتت هذه الساحة تشكل مكاناً مرعباً للناس. وذلك لتكرار الانفجارات التي يذهب ضحيتها المئات من الشهداء والجرحى. فضلاً عن الأضرار المادية والاقتصادية التي تخلفها.

ومن الأمثلة الأخرى على فوبيا المكان في هذه الرواية ما نجده في المقطع الاتي. إذ يقول الكاتب ((كان حسيب ينظر الى سيارة النفايات وتتلاحق في ذهنه الأوامر والاستجابات المتناقضة، إنها سيارة نفايات ليس إلا، لقد أخطأ السائق، فقد السيطرة على مقود السيارة فاندفعت تجاه الباب. حصل حادث مروري لم ينتبه لهُ فاندفع سائق السيارة بسببه ودون قصد نحو باب الفندق، لا .. إنه انتحاري.. توقف.. توقف.. إطلاقة ثم أخرى. لم يكن يقصد قتل السائق، لا يتجرأ على قتل أحد لكن هذا واجبه، يعرف جيداً الأوامر المشددة بشأن حماية الفندق، هناك شركات أمنية وشخصيات حساسة ولربما أميركان في هذا الفندق. لديه ترخيص بالقتل، كما يقولون تتدافع الأفكار في ذهنه بأجزاء من الثانية ويده تضغط على زناد البندقية، وربما قبل أن يحسم أمره بشأن الاستجابة الأفضل تجاه هذا المأزق. انفجرت السيارة، انتبه حسيب محمد جعفر لنفسه وهو يتابع الانفجار، ولكن ليس من موقعه ما بين الكابينة الخشبية والباب الخارجي العريض للفندق والمصنوع من القضبان المعدنية المتعامدة . كان يشاهد النيران والدخان وتناثر أجزاء حديدية في الهواء، ويشعر مع ذلك بهدوء غريب.

شاهد رجلان مع كيس جنفاص أبيض يتطوحان في الهواء ويسقطان على مسافة بعيدة عن موقع الانفجار، وشاهد تناثر زجاج نوافذ الفندق وواجهة الاستعلامات العريضة باتجاه الباحة الأمامية للفندق. وبعد لحظات همدت غيمة الدخان ومرت نصف ساعة قبل أن تجيء سيارات الإسعاف والإطفائية))[2].

ومن الأماكن الأخرى التي تشكل نوعاً من الفوبيا والخوف الدائم والقلق لدى المواطن العراقي هي البنايات الحكومية الخاصة ومواقع المسؤولين التي يقطنها الوفود الدبلوماسية والشخصيات الأجنبية. فهذه الأمكنة معرضة في أي لحظة الى الهجوم بسيارة مفخخة أو شخص ملغوم ينفجر أمامها تاركاً خلفه كارثة حقيقة يذهب ضحيتها العشرات من المواطنين والطلاب والمتبضعين وسائقي سيارات الأجرة والعمال. لذلك نرى الإنسان العراقي أصبح بمجرد المرور من أمام هذه الأماكن يشعر بحالة من الهيجان النفسي والعصبي وهو يتوقع ويتخيل ذلك الانفجار العظيم الذي يذهب به في مهب الريح. كل هذه المشاعر السلبية الحزينة كانت نتيجة لمقدمات سبقتها. إن لم يشاهدها الإنسان عياناً على أرض الواقع. فالإعلام

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد، 13 .

(2) رواية فرانكشتاين في بغداد: 45-44 .

كفيل بنقل تفاصيلها لهم في هذا البلد المتأزم.

ومن الأماكن الأخرى التي نجدها نموذجاً للمكان المعادي في هذه الرواية. قول الكاتب ((أنهى محمود السوادي كل متعلقاته وتخلص من مطاردة موظفي مجلة الحقيقة. حزم حقيبة صغيرة كان قد جاء بها أصلاً من ميسان، وأغلق حسابه في فندق دلشاد. ستشتعل البلاد بنيران أكثر. ومن السليم الابتعاد الى الجنوب الآن، وهذا ما سيفعله الكثير من أصدقائه. سيعود فريد شواف الى قريته الصغيرة القريبة من ناحية الإسحاقي شمالي بغداد. سيتخلى مؤقتاً عن مجد الفضائيات والبدلات الأنيقة على الشاشات. ويذهب زيد المرشد الى الحلة، أما عدنان الأنور فسيتجه الى مدينة النجف حيث أهله وأعمامه. أما حازم عبود، فبسبب عمله كمصور صحفي يرافق القطعات العسكرية الأميركية، فإنه لن يتمكن من العودة الى حي الصدر، ولن يجد، حيث يعود الى بغداد، فندق العروبة قائماً في مكانه ولا أبا أنمار، وسيقيم في غرفة مشتركة في فندق بسيط آخر مع صديق يعمل في مجال التصوير أيضاً))[1]. نجد في هذا النص كيف أثر تفاقم الأحداث سلبياً على دلالة المكان. إذ نلحظ أن مفهوم المكان تحول من الألفة الى العداوة بفعل الأحداث التي تجري فيه. فمدينة بغداد كانت مأوى آمن لكل فرد عراقي وعربي يجد فيها ما يأويه ويهدأ من روعة أصبحت مدينة أشباح. بفعل الفوضى التي خلفتها الأحداث المتسارعة بعد عام 2003. وغياب الدولة والقانون. مما يحقق أهدافه بغض النظر عن حجم التخريب الذي يتركه خلفه جراء ذلك. فمدينة بغداد هي العاصمة وهي مركز الحكومة وبذلك أصبحت بؤرة للتنازعات السياسية والطائفية والعرقية وغيرها من الأطراف المتصارعة. لذلك تحولت دلالة المكان بفعل الأحداث التي تجري فيه من الألفة والمحبة الى العداوة والكراهية. مما أدى الى هجرة أهلها وسكانها الأصليين وترك المدينة حلبة صراع لجهات متعددة ولأسباب مختلفة.

المطلب الثالث
فوبيا الهوية

وجد الكاتب العراقي في الأحداث التي مر بها العراق بعد علم 2003 أرضاً خصبة ليبرز بها إبداعه ونتاجه الأدبي. إذ تعددت الموارد والمصادر التي بإمكان الكاتب الاستسقاء منها واستلهامها ليسلط الضوء عليها ويعالجها. ومن أهم القضايا التي برزت على الساحة العراقية في هذه الحقبة الزمنية هي أزمة الهوية أو فوبيا الهوية على وجه العموم. مما جعل الكاتب يتصدى لهذه الازمة محاولاً إيجاد الحلول لكارثة بشرية تفتك بالإنسان من خلال التمييز العنصري بين أبناء الشعب الواحد. التي تؤدي بدورها الى تفكيك بنية المجتمع وخلخلتها. وبالتالي إشاعة الفوضى وضعف الأمن والتعايش السلمي بين أبناء المجتمع على مختلف الأديان والطوائف والقوميات. إذ أن هذه الأحداث نتيجة لغياب الدولة والقانون بسبب دخول قوات التخالف الى أرض العراق وتغيير نظام الحكم. فوجدت مثل هذه الأزمات ظروف مثالية لتنمو وتزدهر وتمتد جذورها وتتغلغل في كل مفاصل المجتمع. والتي أفادت تداعياتها الى إيقاظ الصراعات الطائفية والقومية والدينية. إذ تشجعت هذه المفردات على الانتشار والتوسع بسبب محاصصات النظام الجديد على الحكم وصراع الأحزاب الدينية والسياسية للسيطرة على زمام الأمور .وغياب الشعور الحقيقي بالمواطنة الخالصة والانتماء الحقيقي للوطن الواحد.

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد: 331 .

نجد كل هذه المقدمات جسدها الكاتب أحمد سعداوي في روايته فرانكشتاين في بغداد. فمن خلال قراءتنا للرواية وجدنا أن أزمة الهوية تنوعت فيها بدءاً بالهوية الدينية والسياسية والشخصية وغيرها. فمن النماذج العملية على أزمة الهوية في روايتنا قول الكاتب ((طردت القط (نابو) من الأريكة في صالة الضيوف ونفضت بيدها شعره المتساقط، رغم أنها لا ترى أي شعر فعلاً، إلا أنها تأكدت، من خلال تمسيدها على ظهره في بعض الأحيان، أن شعره العجوز يتساقط في كل مكان. وبإمكانها تجاهل الأماكن كلها إلا موضعها الخاص في صالة الضيوف على الأريكة في مواجهة الصورة الكبيرة للقديس ماركوركيس الشهيد التي تتوسط صورتين رماديتين أصغر حجماً مؤطرتين بالخشب المحفور لابنها وزوجها تيداروس. هناك صور أخرى بذات الحجم الصغير للعشاء الأخير ولإنزال المسيح من الصليب وثلاث صور بحجم الكف منسوخة من أيقونات أصلية من القرون الوسطى مرسومة بقلم حبر ثخين وألوان باهتة لقديسين من كنائس متعددة لا تعرف أسماء بعضهم لأن زوجها هو من وضعها قبل سنوات طويلة وما زالت على حالها متناثرة ما بين صالة الضيوف وغرفة نومها وغرفة دانيال المقفلة والغرف الأخرى المهجورة))[1].

نجد في هذا المقطع صورة للهوية الدينية إذ أن العجوز ايليشوا امرأة مسيحية تعيش في حي البتاوين وسط بغداد بين آلاف المسلمين وغيرهم من الديانات الأخرى. فُقد ولدها الوحيد (دانيال) في الحرب العراقية الإيرانية حاله كحال آلاف العراقيين الذين ذهبوا الى مصير مجهول. واضطرت ابنتيها الى الالتحاق بزوجيهما والهجرة الى استراليا نظراً لتفاقم الأحداث في العراق وبغداد خصوصاً. مما اضطرت إيليشوا إلى العيش وحدها محافظة بذلك على طقوس ديانتها في الذهاب الى الكنيسة كل يوم أحد لأداء الصلاة أمام القديس.

شكلت لها هويتها ومذهبها العديد من المخاوف والقلق بسبب الضغوط التي كانت تتعرض لها من قبل ضعفاء النفوس في محاولة منهم للاستيلاء على بيتها مستغلين الوضع الأمني المتردي وغياب القانون. فضلاً عن إنها امرأة وحيدة ليس لها من يساندها أو يقف بجانبها. على ارغم من حب أهل الحي لها، إذ أن بعض جاراتها يحسبنها امرأة مباركة صاحبة فأل جيد. إلا أن هذا لا يمنع أصحاب المطامع الرخيصة من مضايقاتها. ونجد تفصل ذلك في قول الكاتب ((لم يتوقف الرجلان عن تكرار المحاولات، ولأن العتاك لا يبدو في صورة مقبولة أبداً فمساعيه لا تحظى بالتعاطف الكافي من الجيران والمعارف، بينما فرج الدلال أكثر من مرة دفع النساء المحيطات بام دانيال لإقناعها بفكرته. وهناك من اتهم فيورنيكا منيب أم اندور الجارة الأرمنية التي تحضر أحياناً في عصريات أم سليم البيضة بأنها تلقت رشوة من فرج الدلال لقاء إقناعها للعجوز. وتحدث فرج الدلال مع أم سليم أيضاً. لم يفقد الأمل أبداً بينما ظل هادي العتاك يزعجها في الطريق بتكرار طلبه مرة بعد أخرى، حتى انشغل عنها لاحقاً مكتفياً بالنظرات العدائية المتكلفة. وكأنه يحاول إحراقها بعينيه حين تمر بجواره في الزقاق .

لم تكتف إيليشوا العجوز برفض هذه العروض، وإنما خصت الرجلين بالكراهية. رمت بهما في الجحيم المؤبد. رأت في وجهيهما شخصين جشعين بروحين ملوثتين كبقع حبر على سجادة رخيصة تصعب إزالتها))[2].

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد :22 .

(2) المصدر نفسه: 18-17 .

يبين لنا هذا النص مدى الذى الذي تعرضت لهُ هذه المرأة العجوز المسيحية في بلادها ووطنها الذي وُلدت فيه وولدت فيه أبناءها. بسبب هويتها الدينية من جهة وانعدام الأمن والقانون والدولة من جهة أخرى. لذلك تشكلت لدى هذه المرأة فوبيا وخوف شديدين من المستقبل المجهول الذي ممكن أن تتعرض لهُ في أي لحظة وخصوصاً أن هناك من يطمع في ممتلكاتها ويترصدها.

نرصد في الرواية أزمة أخرى تشكلت لدى الإنسان العراقي بسبب هويته بغض النظر عن نوع ومصدر هذه الهوية . إذ يقول الكاتب ((أسكن في عمارة غير مكتملة البناء تقع في مكان قريب من حي الآثوريين بالدورة جنوب بغداد، وهو مكان تحول الى ساحة معركة قلقة وغير مستقرة بين ثلاثة أطراف، الحرس الوطني العراقي والجيش الأميركي من جهة، والميليشيات السنية والشيعية من جهة ثانية وثالثة. يمكن أن أصف العمارة التي أقيم فيها بأنها المنطقة صفر .لأنها والبنايات المجاورة لها في مربع بقطر كيلو متر واحد، لم تخضع لأحد هذه الأطراف الثلاثة بشكل كامل في يوم واحد. ولأنها ساحة حرب فعلية فهي خالية من السكان، ولأنها خالية من السكان فهي المكان المناسب لي))[1] .

نلحظ في النص أعلاه كيف عملت الهوية كل هذه التناقضات. التي أدت بدورها الى هجرة الناس من مكان وتركه خالياً حفاظاً على أنفسهم من شده النزاع الذي من الممكن أن يذهبوا ضحية في واحد من الصراعات التي تتجدد في كل لحظة. إذ أن المجتمع انقسم الى العديد من الجهات وكل جهة تتبنى منهج ووجه نظر معينة تريد أن تفرضها وتسيطر على زمام الأمور. وكل هذه المناهج لا تهتم الإ بمصالحها الشخصية والمتضرر الرئيس هو الإنسان العراقي البسيط. فنرى أن فوبيا الهوية التي سيطرت على المواطن جعلته ينفر من المكان حفاظاً على نفسه من جراء هذه الكوارث التي تفعل ما تريد دون وازع من دين أو رادع من نظام وقانون.

ومن الأمثلة الأخرى على فوبيا الهوية قول الروائي ((انتو منين؟

– إحنة من مديرية المرور العامة

رد ((الضابطان الورديان)) بأدب على سؤال هادي العتاك وهو جالس على سريره وسط الحوش مع انحدار الشمس الى المغيب. كانا مع ثلاثة منتسبين آخرين وقد اقتحموا بيت هادي بدون استئذان وتركا سيارة الجي أم سي يوكن السوداء مع سائقها في مدخل الشارع التجاري بالبتاوين، قريباً من مقهى عزيز المصري..... انته من كل عقلك.

رد بشجاعة مفاجئة ، وأكمل.

– ياجثة ياشسمه؟.....لا بالله العظيم أنتو هسه مسوين قلم رعب علي علمود سالفة كذابية....لا تصير لوتي علينه .....لا بالله العظيم هسه أعجنك عجن.

هدد ذو الضمادة الطبية ، فأمسك الضابط الوردي الثاني بذراعه ليهدئه، وليتسلم منه دفة التحقيق. استمر بالدوران حول سرير هادي العتاك وتوجيه الأسئلة لهُ حتى بعد أن حل الظلام وغطست ملامح الجميع في العتمة. صارت الأصوات أكثر حدة ،ودفعته الأيادي المجهولة على السرير أكثر من مرة. ثم ضربه أحدهم على وجهه بصفعة حادة فهوى على الأرض وارتطم رأسه ببلاطة سليمة من بلاطات الأرضية المخلعة والمكسرة. ثم شعر بأن التحقيق المهذب الذي كان يجري بالكلام والأسئلة حتى تلك اللحظة قد اتخذ منحى آخر .منحى مألوف يجري في كل مراكز الشرطة. الشرطة العراقية ويسمع هادي كثير من قصص الآخرين. ثم رفعة من ذراعيه من قبل شخصين من المرافقين، وبدأ الضابط الوردي ذو الضمادة حول الرقبة يوجه لكمات مسعورة الى بطن هادي. استمر الأمر لدقيقتين من النزال أحادي

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد : 158.

الجانب))[1] .

ننتقل في هذا النص من فوبيا الهوية الدينية والمذهبية الى هوية من نوع آخر. وهي هوية الضابط التي تشكلت عند شخصية (هادي العتاك) فوبيا دائمة وهو يستعيد ذكريات هذا اليوم الأليم بالنسبة لهُ وما لاقاه من ويلات وضرب وتعذيب أثناء التحقيق معه في منزله من قبل (الضابطان الورديان) الذين ذكرهما الكاتب في النص أعلاه. إذ نجد أن شخصية ضابط التحقيق التي تتسم بالجرأة والشراسة والغلظة تشكل لدى المجرم خوفا وهلعا دائمين كلما حاولوا استعادة التحقيق معه. وهذا ما ظل (هادي العتاك) في خوف ووجل دائم من هذين الضابطين في محاولة منهم للعودة الى منزله ذات يوم وتكرار ذلك المشهد المؤلم الذي تعرض لهُ وتلك الضربات المروعة التي لم يشهد لها مثل في حياته. لهذا تحقق مغزى فوبيا الهوية في هذا النص في مشهد هادي العتاك والضابطان الورديان وعملية التحقيق في قضية معينة . كان هادي العتاك المتهم الأول فيها.

المطلب الرابع
فوبيا المستقبل المجهول

حظي الزمن باهتمام كبير من لدن النقاد والباحثين في مجال الأدب ،لما لهُ من أواصر ارتباط متينة يقوم عليها البناء السردي[2]. ويختلف تركيب الزمن من جنس أدبي الى آخر. فعلى الرغم من أن الامتثال للزمن أمر لا بد منه. إلا أن إحساسنا به يكون خاطفاً في الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة القصيرة والقص الشعري. وذلك لأن الامتداد هذا النوع من القص يكون في المساحة الشعورية وليس من مساحة الزمن[3] .

لذلك عَد الشكلانيون الروس زمن القصة زمن مزدوج[4]. إذ ميزوا بين نوعين من الزمن وهما زمن المتن الحكائي الذي هو ((زمن تعاقبي خطي ليس من طبيعته حدوث شروخ فيه، تضع لحظة في موضع سابق أو لاحق لحدوثها))[5]. وزمن المبنى الحكائي الذي هو ((زمن تعقبي تحديدا يبدأ لحظة النطق وينتهي لحظة توقف الكلام))[6] .

ما نريد التركيز عليه في هذا البحث هو زمن المستقبل أو الزمن الاستباقي كما هو معروف في معجم الأدباء والسرديين. فمن خلال قراءتنا لرواية فرانكشتاين في بغداد وجدنا أن هذا النوع من الزمن يشكل عاملاً خطيراً في نفوس الشخصيات فوبيا مستمرة من القادم المجهول نظراً لتفاقم الأحداث نحو الأسوأ يوماً بعد يوم. وليس هناك بارقة أمل أو نقطة ضوء في نهاية النفق المظلم ممكن أن ترشدهم الى الطريق السليم. فهذه الرواية صورة للإنسان العراقي وهو يعيش يومه بكل مافيه من ألم وويلات. يفكر في الغد المجهول الذي ربما يكون أسوأ من اليوم الحاضر وهو يشاهد آلاف العوائل والأشخاص وهم يتركون بيوتهم ووطنهم ويهاجرون الى جهات مجهولة والى مصير مجهول في الأعم الأغلب وسط دموع وخوف وتذمر من هذا الواقع المخيف. كل هذه الأحداث التي لها نقطة بداية ونهايتها غير معلومة، كونت نوعاً من التشاؤم والتفكير في نهاية الأنسان في أي لحظة .إذ لا آمال ولا طموحات ولا أفكار بعيدة المدى. أصبح هم الإنسان الوحيد كيف يحافظ على حياته وهو يعيش على ضروريات الحياة. عندئذ يصل الإنسان الى أقسى مراحل التعاسة والبؤس. لالأن أصعب مراحل

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد : 217-216 .
(2) ينظر، أشكال التعبير في شعر مظفر النواب، نوفل شاكر الخاقاني: 27 .
(3) ينظر ، دراسات في النقد الأدبي ، د .كمال زكي: 41 .
(4) ينظر، نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس: 179 .
(5) الرؤى المقنعة (نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي) كمال أبو ديب: 606 .
(6) المصدر نفسه: 606 .

الحياة عندما يعيش الإنسان بلا أمل ولا طموح .

فلم يكتف المجرمون بملاحقتهم بالتفجيرات الانتحارية في الشوارع بل ملاحقتهم الى البيوت في سبيل إشاعة الفوضى والرعب. لذلك يضطر الإنسان الى تغيير هذا الواقع مضحياً بكل ما يملك حفاظاً على نفسه وحياته.

لذك فإن مفهوم الاستباق السردي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم المستقبل الزمني. فالاستباق هو تنبؤ لأحداث المستقبل وفقاً لمعطيات الحاضر وما يحدث فيه إذ هو ((تقنية سردية معتمدة على الاستباق ،لم تظهر بصورة فاعلة الا في أوقات متأخرة. ربما تتوازى مع ظهور تيارات تجريبية تعتمد على فعاليات الوعي وتياره في السرد،))[1].

وقد رأى الدكتور سعيد أبو عطية أن الاستباق ((يدل على كل مقطع حكائي يسرد أحداثاً سابقة لأوانها أو يمكن توقع حدوثها، وعلى المستوى الوظيفي تعمل الاستشراقات على تمهيد أو توطئة الأحداث لأحداث متوقعة الحدوث وحمل المتلقي على انتظارها))[2] .

فهو مفارقة تتجه نحو المستقبل بالنسبة للزمن الحاضر الآني مع الإلماح الى حدث أو أكثر سيحدث بعد اللحظة الآنية أو اللحظة التي يحدث فيها توقف القص الزمني ليفسح مجالاً للاستباق في التنبؤ لما سيحدث وفق معلومات ومعطيات استقاها من الوقائع التي حدثت في المستقبل[3] .

ومن الأمثلة التطبيقية على فوبيا الزمن في رواية فرانكشتاين في بغداد ما نجده في هذا المقطع إذ يقول الكاتب ((ظل يمشي، دون تفكير، يأتي تقاطع ساحة الأندلس. كان يوماً عجيباً. لقد سمع في تلفزيون المطعم أن الانفجارات كثيرة حصلت خلال اليوم، في مناطق الكاظمية ومدينة الصدر وحي المنصور والباب الشرقي. ظهرت لقطات تلفزيونية للجرحى والمصابين في مستشفى الكندي ثم لقطات لساحة الطيران، أثناء ما كان الا طفائيون يغسلون المكان، وتوقع هادي أن يرى نفسه في ركن محل الأدوات، وهو يدخن بهدوء مثل مجرم يتابع آثار جريمته. ثم ظهر ناطق باسم الحكومة يتحدث ويبتسم ويرد على أسئلة الصحفيين، مؤكداً أنهم أفشلوا مخططات الإرهابيين لهذا اليوم، فحسب المعلومات الاستخبارية كان هناك مئة هجوم بسيارات مفخخة خططت للقيام بها عناصر القاعدة وفلول النظام السابق ،إلا أن قيادة قوات التحالف والأجهزة الأمنية العراقية أحبطتها جميعاً، ولم تكن هناك خمسة عشر تفجيراً فقط))[4].

نلحظ في هذا النص كثافة الأحداث وتشابكها وتعقيدها الذي ازداد سوءا وتأزما عن الأحداث التي سبقته. وهذه مدعاة وسببا مقنعا لدخول الخوف والذعر والهلع في نفوس الناس من المستقبل المجهول. فالإنسان يبني تصوره وخياله وقراءة للمستقبل من خلال هذه المعطيات والمقدمات التي تحدث. اذ نلحظ ان هذه الاحداث لم تكن منفردة الحدوث أو أن حدوثها وقع فجأة. وإنما هذه الأحداث أصبحت روتينا يزداد شراسة وفتكاً يوماً بعد يوم. لذلك تشكلت لدى الإنسان فوبيا دائمة من الأحداث التي تليها وأصبح كل تفكيره فيما سيحصل في الغد. فهو يعيش في سفينة تبحر في شاطئ قلق ومتقلب الأمواج. شاطئ مزاجي يمكن أن يزداد مزاجه سوءاً مه هبوب الرياح ليذهب بكل ما يحمله على ظهره.

ومن الصور الأخرى التي وجدناها في الرواية وركز عليها الكاتب ليبين الخوف من المستقبل ما نجده في قوله:

(1) الزمن النوعي وإشكاليات الخطاب السردي، هيثم الحاج جاسم: 127 .
(2) بنية الخطاب السردي في رواية التيه، د. سعيد أبو عطية: 10 .
(3) ينظر، المصطلح السردي، جيرالد برنس: 186 .
(4) رواية فرانكشتاين في بغداد: 38 .

((بناتها هيلدا وما تليدا تستمران بالاتصال بالأب يوشيا وهو يستمر في تطمينهما على صحة وسلامة العجوز، لكنهما تطلبان سماع صوتها، وتعلمان أن أمهما غاضبة وتريدان مصالحتها. أبلغها الشماس بمضمون هذا الكلام، وقال لها أن الأب يطلب أن تزوره الأحد القادم وتحضر القداس في الكنيسة .ونظرت إليه بعبوس ولم تعلق بشيء.

– ما تليدا ستحضر الى البلد من أجلك. .قالت إنها ستأتي إليك. ستحملك معها.

– لن تفعل هي جبانة.

– ستفعل .. كانت تبكي خلال الاتصال بالأب يوشيا..

– لن أذهب الى أي مكان. لن أترك بيتي.

– وما نفع هذا البيت يا أم دانيال. ما نفعه وأنت وحيدة مثل من يجلس في خيمة في الصحراء.

– ناسي هنا وجيراني . حياتي بهذا البيت.

– أعرف ولكن ما تشتاقين لبناتك.

– هن بخير... لماذا يطلبن مني ترك بيتي؟

– والله الحياة صارت صعبة ..ما نفع البيت إذا كانت الحياة صعبة. .خوف وموت وقلق. .المجرمين بالشوارع.. الناس عيونها تأكل الواحد وهو يمشي.. حتى بالنوم كوابيس كلساع نفز.. البلد صاير يأم دنيه مثل هذه الخرابة اليهودية الي بصفك.

– ((لا تخافون من الذين يقتلون الجسد))))[1].

إن أسوأ ما يفقد الحياة قيمتها هو فقدان الإنسان شعوره بالأمان، فمن يسيطر عليه شعور الخوف من المستقبل، يجد نفسه مضطرب المشاعر، حائر الفكر، فالشعور بالخوف يعد أمراً طبيعياً للإنسان عندما يريد أن يدفع عن نفسه خطر شيء معين يعتقد أنه يشكل خطراً على حياته. لذلك نجد في هذا النص أن أحداث بغداد والفوضى والدمار الذي شهده البلد ترك لدى (هيلدا وما تليدا) فوبيا دائمة على والدتهم. وخصوصاً بعد تركها في البلد المتأزم أمنياً وسفرهم مع أزواجهم إلى أستراليا. فكان هذا الهاجس المؤلم يحاكي خيالهم ويؤنب ضميرهم في كل لحظة على الرغم من محاولاتهم الفاشلة في إقناعها بترك بيتها والالتحاق بهما. إلا أنها ترفض طلبهم في كل مرة متمسكة بذلك الخيال الوهمي الذي يشغل بالها ويحاكي خيالها بعودة ابنها دانيال الذي فُقد في الحرب العراقية الإيرانية. رافضة فكرة موته. فهي تفضل البقاء في البلد متحملة كل ما يجري فيه من فوضى وقلق وموت محقق في أي لحظة والمستقبل المعتم على السفر والاستقرار في بلد ما. وهذا حال أغلب العائلات التي نزحت واستقرت في بقاع الأرض إذ يكون الاستقرار جسدياً فقط. أما الروح والنفس والكيان والشعور فبقي عالقاً في الأرض الأم يقتلها الحنين في طل لحظة تتنفس فيها الهواء .الحنين الى البيت والأرض و الإنسان .

ومن النماذج الأخرى على فوبيا المستقبل في هذه الرواية قول الكاتب ((كان هذا كله هو الجزء الأول من الكارثة بالنسبة لهُ. فهو الآن بلا عمل. لقد فقد وظيفته الممتازة .وكان ينتظر نهاية الشهر حتى يستلم مرتبه ليفي بديونه المستحقة للفندق الذي يقيم فيه. كما أنه الآن غير قادر على العمل في صحيفة أو مجلة أخرى كمحرر .لقد تعرف خلال الاشهر الثلاثة الماضية، وبكل ما أوتي من قوة، وسيغدو عرضة للسخرية حين يتقدم لشغل وظيفة محرر. ولربما وجد واحداً من أصدقائه الذين أساء لهم سابقاً وقد أصبح رئيساً عليه. إنه غير قادر، في هذه الفترة على الأقل، على التفكير بعمل آخر، خصوصاً حين يكون مجرد عمل في مطبوع أو مؤسسة إعلامية لا يغطي مرتبها نفقات معيشة التي تعود عليها بسبب السعيدي، بما فيها من رفاهيات صغيرة أغرق نفسه بها دون أن يحسب حساباً للمستقبل. لقد وثق

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد : 245–244 .

بالسعيدي أكثر مما يجب.

ثم جاءت مشكلة المحررين الذين لم يقبضوا مرتباتهم للشهر الأخير من المجلة. كانوا قد اختفوا وتلاشوا بعد الفضيحة المجلجلة التي حصلت في المجلة، ولم يتوقع محمود أن يراهم مجدداً. ظهر هؤلاء المحررون والمنضدون فجأة أمام استعلامات فندق دلشاد، وعرف سريعاً أنهم أولئك الذين يتمتعون بصلافة أكثر من بقية زملائهم فالأخرون يعرفون ويقدرون عدم مسؤولية محمود السوادي عن صرف المرتبات.

باع ملابسه الفاخرة وأحذيته على باعة الملابس المستعملة في الباب الشرقي. ثم اتفق مع بعض أصدقائه على بيع بقية حاجياته.))[1].

تسارعت الأحداث وتدهورت نحو الهاوية. إذ أصبحت حياة الصحفي محمود السوادي في الجحيم. فقد خسر وظيفته وبات في مأزق من التزاماته الكثيرة التي لا يجد لها حل. بعد سفر مدير المجلة وتركه وحيداً يصارع كل هذه الظروف المحيطة به. هنا تحققت فوبيا المستقبل المجهول. فقد أصبح هذا الصحفي محاطاً بكم هائل من المحطات التي ممكن أن تودي بحياته في أي لحظة. إذ توقفت الحياة أمامه. كل هذه الأحداث كانت سبباً في تأزم حالته النفسية وشعوره بالخوف من المستقبل المجهول الذي ليس لهُ أي علامات أو إشارة على التكهن بهويته وصورته .فهو يعيش في حالة توقف فيها تفكيره. ولا يعرف السبيل للتخلص والنجاة من هذا المأزق المؤلم.

الخاتمة

بعد الانتهاء من دراسة هذا الجانب (الفوبيا)في رواية فرانكشتاين في بغداد والوقوف على أهم الجزئيات التي دعت الى حدوث هذه الفوبيا وتفصيلاتها .صار لزاماً علينا أن نقف على أهم النتائج التي توصل إليها البحث. ومنها..

1- سلط الكاتب الضوء على أهم مرحلة شهدتها مدينته بغداد والعراق بصورة عامة بعد أحداث 2003 وتغيير نظام الحكم والفوضى التي رافقت هذا التغيير.

2- وجدت في هذه الرواية صورة كاملة وانموذجية عن الخوف والهلع والمعاناة التي كان المواطن يعيشها وسط غياب الدولة واختفاء القانون.

3- كان المجتمع مفكك في ظل تكالب الأحزاب والفئات المختلفة في سبيل السيطرة على زمام الأمور والوصول الى الحكم.

4- تعددت مصادر الخوف وتنوعت أشكال الفوبيا في المجتمع العراقي في تلك المدة الزمنية. إذ نجد الإنسان فقد طعم الحياة بسبب فقده للامان حتى وهو في بيته.

5- أشد أنواع الهلع والخوف التي وجدتها في الرواية هو فوبيا الهوية. التي عصفت بالمجتمع العراقي. ومزقت نسيجه. وشتت لحمته الوطنية. وبذلك فقد نعمة التعايش السلمي بين فئات وأطياف المجتمع العراقي التي كان ينعم بها من قبل.

(1) رواية فرانكشتاين في بغداد : 328 .

المصادر

القرآن الكريم
1- إدام الفن. دراسة في الأدب العربي ، د. فليح الركابي، دار ومكتبة البصائر، بيروت، 2011
2- أشكال التعبير في شعر مظفر النواب، فوفل شاكر الخاقاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1،2013
3- الألسنية والنقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، د. موريس أبو ناضر، دار النهار للنشر، بيروت، 1979، د. ط .
4- بنية الخطاب في رواية التيه ،د .سعيد أبو عطية ، مجلة البيان ،الكويت، عدد (316).
5- جماليات المكان غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر. وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980 .
6- دراسات في النقد الأدبي، د. كمال زكي ،دار الأندلس، ط1980،2.
7- الرؤى المقنعة (نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي) د. كمال أبو ديب. الهيئة المصرية للكتاب، د. ط، 1986.
8- الزمن النوعي وإشكاليات الخطاب السردي، هيثم الحاج جاسم، مؤسسة الانتشار العربي، ط1،2008
9- عصر الرواية، د. جابر عصفور، مجلة العربي، الكويت ، عدد (405)، 1992.
10- عودة الى خطاب الحكاية ، جيرار جنيت ، ترجمة، محمد معتصم، تقديم، سعيد يقطين، ط1،2000
11- الفوبيا وأنواعها، علي الهاشمي الدوري، موقع الحوار المتمدن الالكتروني.
12- فرانكشتاين في بغداد، أحمد سعداوي، 2014، ط2.
13- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة
14- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، 1990،ط1
15- مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة سيزا قاسم. مجلة ألف، القاهرة، عدد(6)، 1986
16- المصطلح السردي، جيرالد برنس، ترجمة، عابد خزندار ، المشروع القومي للترجمة، 2000
17- نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة، إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، 1987، ط1 .